

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ
إِذَا عَجَبْتُمُ كَثُرَتُكُمْ فَلَمْ تُعْنِ عَنْكُمْ
شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ

بِمِنْ وَلَيَّتُمْ مُدِيرِينَ ٢٥

إن من عظام الأمور وكبار الذنوب التي تهلك صاحبها، وتفسد عليه أعماله: تلك الخصلة الذهيمـة: العجب(1)؛ قال الراغب الأصفهاني: "العجب ظن الإنسان في نفسه استحقاق منزلة هو غير مستحق لها، قال بعضـهم: هو استعظام النعمة والركنـون إليها، مع نسيان إضافتها إلى المـنعم عـز وجـلـ".

قال الله تعالى: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذَا عَجَبْتُمُ كَثُرَتُكُمْ فَلَمْ تُعْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ
بِمَا رَحِبَتْ ثُمَّ وَلَيَّتُمْ مُدِيرِينَ} [التوبـة:25]، وقال تعالى عن قارون: {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوْلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ
مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثُرُ جَمِيعًا وَلَا يُسَأَّلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ} [القصـص:78].

وقال تعالى: {وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثُرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظْنُ
أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبْدًا} [الكهـف:34-35].

فلما أـعـجبـ بما عنـهـ نـسـيـ أنـ هـذـاـ فـضـلـ اللـهـ عـلـيـهـ، وـأـنـ الـذـيـ أـعـطـاهـ قـادـرـ عـلـىـ أـنـ يـأـخـذـهـ وـيـعـودـ فـقـيرـ كـمـاـ كـانـ، فـكـانـتـ عـاقـبةـ ماـ نـكـرـهـ اللـهـ: {أَوْحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبِحَ يُقْلِبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَّةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي
أَحَدًا} [الكهـف:42].

روى البخارـيـ ومـسـلـمـ منـ حـدـيـثـ أـبـيـ هـرـيـرـةـ رـضـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ: "بـيـنـمـاـ رـجـلـ يـمـشـيـ فـيـ حـلـةـ
تـعـجـبـ نـفـسـهـ، مـرـجـلـ جـمـتـهـ"(2)، إـذـ خـسـفـ اللـهـ بـهـ، فـهـوـ يـتـجـلـجـلـ(3) إـلـىـ يـوـمـ الـقيـامـةـ"(4).

وروـيـ البـزارـ منـ حـدـيـثـ أـنسـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ: "أـنـ النـبـيـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ قـالـ: لـوـ لـمـ تـكـوـنـواـ تـذـنـبـونـ، لـخـشـيـتـ عـلـيـكـمـ ماـ هـوـ
أـكـبـرـ مـنـهـ: العـجـبـ"(5)، وـرـوـيـ البـزارـ منـ حـدـيـثـ اـبـنـ عـبـاسـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـماـ أـنـ النـبـيـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ قـالـ: "ثـلـاثـ
مـهـلـكـاتـ: شـحـ مـطـاعـ، وـهـوـ مـتـبعـ، وـإـعـجـابـ الـمرـءـ بـنـفـسـهـ"(6).

وـرـوـيـ عنـ اـبـنـ مـسـعـودـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ أـنـهـ قـالـ: "الـهـلاـكـ فـيـ شـيـئـيـنـ: العـجـبـ وـالـقـنـوـطـ"(7)، وـقـالـ اـبـنـ قـدـامـةـ رـحـمـهـ اللـهـ: "وـأـعـلـمـ أـنـ
الـعـجـبـ يـدـعـوـ إـلـىـ الـكـبـرـ لـأـنـهـ أـحـدـ أـسـبـابـهـ، فـيـتـولـدـ مـنـ الـعـجـبـ الـكـبـرـ، وـمـنـ الـكـبـرـ الـآـفـاتـ الـكـثـيرـةـ، وـهـذـاـ مـعـ الـخـلـقـ؛ فـمـاـ مـعـ
الـخـالـقـ: إـنـ الـعـجـبـ بـالـطـاعـاتـ نـتـيـجـةـ اـسـتـعـظـامـهـاـ، فـكـأـنـهـ يـمـنـعـ عـلـىـ اللـهـ تـعـالـىـ بـفـعـلـهـاـ، وـيـنـسـيـ نـعـمـتـهـ عـلـيـهـ بـتـوـفـيقـهـ لـهـاـ، وـيـعـمـيـ
عـنـ آـفـاتـهـ الـمـفـسـدـةـ لـهـاـ؛ وـإـنـمـاـ يـتـفـقـدـ آـفـاتـ الـأـعـمـالـ مـنـ خـافـ رـدـهـاـ دـوـنـ مـنـ رـضـيـهـاـ وـأـعـجـبـ بـهـاـ، وـالـعـجـبـ إـنـمـاـ يـكـونـ بـوـصـفـ
كـمـالـ مـنـ عـلـمـ أـوـ عـمـلـ؛ إـنـ ضـافـ إـلـىـ ذـلـكـ أـنـهـ يـرـىـ حـقـاـ لـهـ عـنـ اللـهـ إـدـلـاـ، فـالـعـجـبـ يـحـصـلـ بـاـسـتـعـظـامـ مـاـ عـجـبـ بـهـ، وـإـلـدـالـ

يُوجب توقع الجزاء، مثل أن يتوقع إجابة دعائه وينكر رده"(8). اهـ.

وعلة العجب: الجهل المضاد، وعلاجه: المعرفة بأن ذلك الذي أثار إعجابه نعمة من الله عليه من غير حق سابق له، ومن غير وسيلة يدللي بها، ومن ثم ينبغي أن يكون إعجابه بجود الله وكرمه وفضله؛ وإذا تم علم الإنسان لم ير لنفسه عملاً ولم يعجب به؛ لأن الله هو الذي وفقه إليه، وإذا قيس بالنعم لم يفِ بمعشار عشرها، هذا إذا سلم من شائبة وسلم من غفلة، فأما والغفلات تحيط به، فينبغي أن يغلب الحذر من رده، ويحاف العقاب على التقصير فيه: هذا في علاج العجب إجمالاً، أما علاج حالاته تفصيلاً: فإن ذلك يختلف باختلاف ما يحدث به العجب، فإن كان ناشئاً عن حالة البدن وما يتمتع به صاحبه من الجمال والقوه ونحوهما، فعلاجه التفكير في أقدار باطنها، وفي أول أمره وآخره، وفي الوجه الجميلة والأبدان الناعمة، كيف تمرغت بالتراب وأنتنت في القبور حتى استقررتها الطياع؟ وإن كان العجب لكترة الأموال والأولاد والخدم والأقارب والأنصار فعلاجه أن يعلم ضعفه وضعفهم، وأن للمال آفات كثيرة وأنه غادٍ وراح ولا أصل له.

ومر بالحسن البصري شاب عليه بزة له حسنة، فدعاه فقال له: "ابن آدم مُعجب بشبابه، مُحب لشمائله، كأن القبر قد وارى بذلك، كأنك قد لقيت عملك، ويحك داوٍ قلبك فإن مراد الله من العباد صلاح قلوبهم"؛ قال مسرور: "كفى بالمرء علمًا أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلاً أن يُعجب بعمله"(9).

قيل للحسن البصري: "من شر الناس؟ قال: من يرى أنه أفضّلهم، وقال بعضهم: الكاذب بنهاية البعد من الفضل، والمُرأي أسوأ حالاً منه لأنّه يكذب بفعله وقوله، والمُعجب أسوأ حالاً منهما لأنّهما يريان بفعله وقوله: والمُعجب أسوأ حالاً منهما لأنّهما يريان نقص أنفسهما ويريدان إخفاذه، والمُعجب عمّي عن مساوئ نفسه ورآها محاسن وسرّ بها، وقد قال إبليس: إذا طفرت من ابن آدم بثلاث لا أطالبه بغيرها: إذا عجب بنفسه، واستكثر عمله، ونسى ذنوبه"(10).

والخلاصة:

"أن العجب آفة كبيرةٌ ومرضٌ خطيرٌ من أمراض القلوب، وإن لم يتداركه صاحبه فإنه يهلكه، ويكون سبباً في بطلان عمله وسقوطه من عين ربِّه".

(1) الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص306.

(2) هي مجتمع الشعر إذا تلى من الرأس إلى المنكبين.

(3) المراد أنه ينزل في الأرض مضطرباً متدافعاً.

(4) ص 1132، برقم 5789، وصحح مسلم ص 866، برقم 2088.

(5) كشف الأستار (4/244) برقم 3633، وقال المتنزي في كتابه الترغيب والترهيب (546-3/545): رواه البزار بإسناد جيد.

(6) 1/59) برقم 80، وصححه الشيخ الألباني السلسلة الصحيحة برقم 1802.

(7) مختصر منهاج القاصدين، ص298-299.

(8) المرجع السابق نفسه.

(9) يتصرف واختصار من كتاب نظرة النعيم (5357-11/5358).

(10) الذريعة إلى مكارم الشريعة، ص306-307.

المسلم

المصادر: